سمير عيادي

عن الكتابة والظرف

طرح نظري لتجربـــة قصصية

الكتابة عمل من اعمال الانسان التي يعبر بها عـــن مدى تفاعله مع واقعه الحضاري والفكري على مستوى الفرد والجماعة .

الا انها ككل الاعمال الانسانيـــة ، الذهنيـــة منها والحسية ، تلتزم بقوانين وغايات وكيفيات ، يمليها عليها الظرف الزماني والمكاني .

والكتابة تلتزم بقوانين :

اهم هذه القوانين انها تلجأ الى ادوات : اصوات ، حركات ، تنغيمات ، رسوم . والكتابة الادبية التي نعنيها هنا تعتمد خاصة على الاحرف وكيفية وضعها او نطقها والتنسيق بينها ، لتكون الكلمات والحركات والاصوات والصورة . الكتابة الادبية تعتمد على اللغة . واللغة لها

الاجتماعية يضيف بعدا اجتماعيا تجسده رواية بلقيس حوماني « حي اللجى » التي تعرض لتراكم فلاحي الجنوب في ازقة بيروت ليشكلوا بروليتاريا المدينة الرثة .

وباستثناء روايات يوسف حبشي الاشقر او قصصه الطويلة « راحيل » و « خطيب الضيعة » فان بيروت تبقى ساحة الحدث الروائي في الرواية اللبنانية . وبيروت هي الاسم الذي يبتلع كافة الاسماء : مدينة كان توفيق عواد اعظم من جسمها في رواية « طواحين بيروت » ذات المشاهد البانورامية المريضة التي يمكن اعتبارها بالاضافة الـــى رواية غادة السمان « بيروت ٧٥ » مـــن الادب التشوفي المنذر بالكارثة . ان بيروت هي الوطـــن المغترب المضاع والمضيع في كلا الروايتين . ورموز المدينة البشرية في رواية عواد ثلاثة « الست روز » صاحبة البنسيون القوادة ، وسياسي يناضل من اجل رفع عمارة جديدة (وحبل الود موصول بينه وبين الست روز) وصحفي مأجور يسرح بنات افكاره لمضاجعة الثروة . وبيروت عواد هي مدينـــة الصراع الاثني الثقافي والقومي والطائفي والاجتماعـــي ، صراع الشمال والجنوب في الواقع ، وفي ذات بطل الرواية الماروني الذي يحاول خلع مثالاته الطائفية والتقليديـــة الطوطمية ، والزواج بالفتاة الجنوبية المسلمة تميمة . لكن الطواطم كانت اقوى،وتميمة لا تجد امامها سوى الانخراط في المقاومة الفلسطينية تناضل معها « حتى ينشق الليل عن فجر جديد ... »

والواضح من خلال تأزم وتردد البطل في رواية عواد الثانية « طواحين بيروت » ان هناك مأزقا لبنانيا صعبا ، ومن هنا تجيش نفس الكاتب بسخط رؤيوي Apocalyptic رهيب على مدينة لا يستطيـــع ان يجترح لهـــا خلاص فيستنزل عليها الهواء الاصفر ، والقنبلة الهيدروجينية علها تقتلع كي يمكن « لروح الله ان ترف على وجه القمر من جديد » .

كانت تلك نبوءة..وقد سجلت غادة السمان تحققها في اول رواية عن الحرب اللبنانية الاخيرة وهي روايـــة « كوابيس بيروت » التي تلتقط تفاصيل انفجار البراكين اللبنانية التي كانت قد رصدت مع عواد غليانها . ولو من خلال عدسة اضيق من بانورامية عواد وشموليته .

★ ★

ان الرواية العربية في صرختها المخضبة بالدم ضد القمع السياسي ، تبقى مواكبة للهم الاســـاسي في المجتمع العربي ، خاصة وان البعد الاجتماعي يبقى حاضرا في هذه الرواية ، وان تحول بنسبة او اخرى الى ظـــل خلفي في السنوات الاخيرة تحت ضغط الوتر السياسي والرواية بذلك تبقي وعينا مشتعلا بحقيقة انه « آن لكل ذلك ان ينتهي كما تنتهي كل حقارة اخرى » .

عفيف فراج
لبنان

خصائصها . لها امكانات . ولها حد في الامكانات . لهـا مصادرها واشتقاقاتها ومرادفاتها واعرابهـا . ولهـا اصواتها . ولها مراجعها في العلامات المنتشرة في الظرف الزماني والمكاني . فهي لذلك غير ثابتة في القدم ، غـير جامدة في حاضر واحد ، او واقع واحد . تهتز علامـات الظرف خارج مدارك الكائن وداخلها فينطقها صوتا ورسما في ترتيب جديد ، آني ، ومتحول ، وكل ظرف لا يشبه ظرفا سابقا او لاحقا . وكل كتابة لا تقلد ما سبق او ما يلحق . حتى اذا كان اعتبار ذلك في خاطرة الذهن الكتابة النابعة من خصائص الظرف ترفض ذلك ارادياً ولا شعوريا، كما يرفض القلم ان يسطر خطا موازيا لنقطة سوداء على صفحة بيضاء عندما يهتز بيت المصور ، فالخط المتكسر الملتوي هو الدليل على الهزة التي هي الظرف .

لكن هذه الكتابة الظرفية او الكتابة ـ الظرف قاصرة عن التعبير عن كل ما في الظرف الجماعي. لان الكائن واحد وحيد . الكائن المتقبل للهزة المعبر عنها ، مهما كان المامه بشواغل الاخرين ، بحساسيات الاخرين ، بردود فعـل الاخرين ، فهو يعبر مع ـ عن الاخرين خلافا واضافـة للاخرين ، وقد لا يكون تعبيره هـو كل الوصف لذلـك الظرف ، وكل الاعلام عنه ، وكل التعليق عليه . ولكنـه اثبات لوعي به . فالكتابة وعي بالظرف .

والكتابة تلتزم بغايات .

وغايتها الاولى ان تكون ثبتا يحمل الى القارىء معالم ذلك الوعي بالظرف من خلال انتمائه الى حيز اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي . فالكتابة اثبات للظرف من حيث انها تحلله عبر المـدارك والمواقف والحساسيـات المتعددة المتناقضة . وهي كذلك تجاوز للظرف من حيث انها تثير تلك المدارك وتلك المواقف وتلك الحساسيات داخل الحدود الانية وخارجها ، قصد طرح ظرف واقعي مستقبلي ثوري . والاثارة تكـون بالملاحظـة والتساؤل والنقد . لا بالتوجيه .

والنقد اسمى غايات الكتابة ، والتوجيه احطها . لان النقد تعبير عن موقف غير حيادي لكنه جدلي ، يعتبر توزيع الظرف على اكثر من ادراك واحد اما التوجيـه فهو نفسي للجدلية القائمة في المدارك المختلفة وتجميـد لظرف واحد سابق على مدى ظرف جديد لاحق .

فمهما تجرد التعبير عن موقف ، ومهما سعى الى ان يكون على لسان شاهد عيان حضر اصطداما بين راجل وسيارة ، وجاء يبين للقضاء كيف وقـع الاصطـدام ، فيجسمه ، متقمصا دور السيارة تارة ومتحملا حيـاة الراجل طورا ، عالما انه ليس هذا او ذاك ، فانه لا يخلو من تأثر بوضعه الخاص ، وبوجهة نظر ، كما لا يتخلص الشاهد من وضعه في الشارع والزاوية التي رأى منهـا الحادث . فهذا الشاهد صادق وان بدت له الالوان غير التي رآها غيره ، وان تشكلت له الحادثة في غير ما كانت عليه في وسط الطريق . وهذا الشاهد هو في الحق طرف ثالث ، في الخصومة ، يبحث عن كيفية التعبير عن واقعة ، عن واقع ، من موقف خاص به ، لا من موقف السيارة (التي تعطلت) او من موقف الراجل (الذي مات) . واذا زاغ الشاهد وتلبس بموقف احد الطرفين دون ادراك نسبية موقفه كانت الشهادة باطلة ، وانعدمت الجدلية في كيفية التعبـير .

فالشاهد ـ كالكاتب ـ لا يطرح الواقع المجرد من باب الاعتقاد انه « مرآة تعكسـه » بل يطرح اساسا موقفه من الواقع وعيا وتجاوزا ، أي في باب التحليل والنقـد والتغيـير .

والكتابة تلتزم بكيفيات .

فالوعي او الشهادة لا ينبغي ان يصاغ تعبيرهما في نمط نرجسي ، او مرتجل . هما يعبران لظرف جديـد لاحق ـ او لظرف رابع متقلب الاطوار . هذا الطرف قد يجلس فيه القاضي احيانا . والقاضي لا يكون دائما عـدلا . ولا يقبل دائما موضوعية وجهة النظر الخاصة بصاحبها . ولا يرضى باقحام الطرف الثالث نفسه في قضية اثبـات الظرف . قد يرفض الوعي والشهادة معا لانه لا يحب ان يسمع ويرى الا ما في ذهنه . لانه لا يحكم الا بمنطق طرف رابع ، في ظرف مغاير ، بوعي مغاير .

فهذا الطرف الرابع في ظرف لاحق يحكم على ظرف سابق من خلال تعبير الطرف الثالث عنه لا من خلال عمليات اثبات يعانيها بنفسه او دلائل وعي يبدعها من تجربته .

فكيف السبيل الى جعله يجرب ويعاني ويعي ويبدع فيدرك ، ان لم يعمد التعبير نفسه الى التكيف بملابسات الظرف الموضوعية والشكلية ، فتكون الانماط الفنيـة ، وتكون تقنيات تصعد بالكتابـة الى مستـوى التركيب والتفكيك والضغط على الاصوات وعلى العبارات وتشكيل المادة المكتوبة بالاعتماد على مادة التعبير الظرفي المجرد ، بما فيها من طاقة احتدام وتناقض وتنافر ، لانشاء تعبير ظرفي فردي ، متقلص في الحلم ، متركز في الجدل ، متردد في البيان ، متحرك في الدلالة على الظرف ـ الحـدث او الظرف ـ الحالة او الظرف ـ الواقع ، متعنت في رفض التعليق الذي قد يوجهه الى ما يحبه فكر ـ القاضي ـ المحرف ـ الرقيب ـ الكاتب ـ المانع ، وتأباه خصوصية الظرف ـ الوضع او الظرف المعاناة .

الكتابة معاناة ومسؤولية .

الكتابة اعجاز (لانها خصوصية) واعجاب بذلـك الاعجاز (لانها ترويض لعجز البلاغـة العفويـة البدائيـة وتقويض لحكم البلاغة المشذبة الرسمية وتحطيم للتقنين والتقليد والاستلاب) .

سمير عيـادي
تونس